إعداد/ خالد دردير

يوسف بن تاشفين.. أمير المسلمين

2-2

مدرسة يوسف بن تاشفين في مراكش

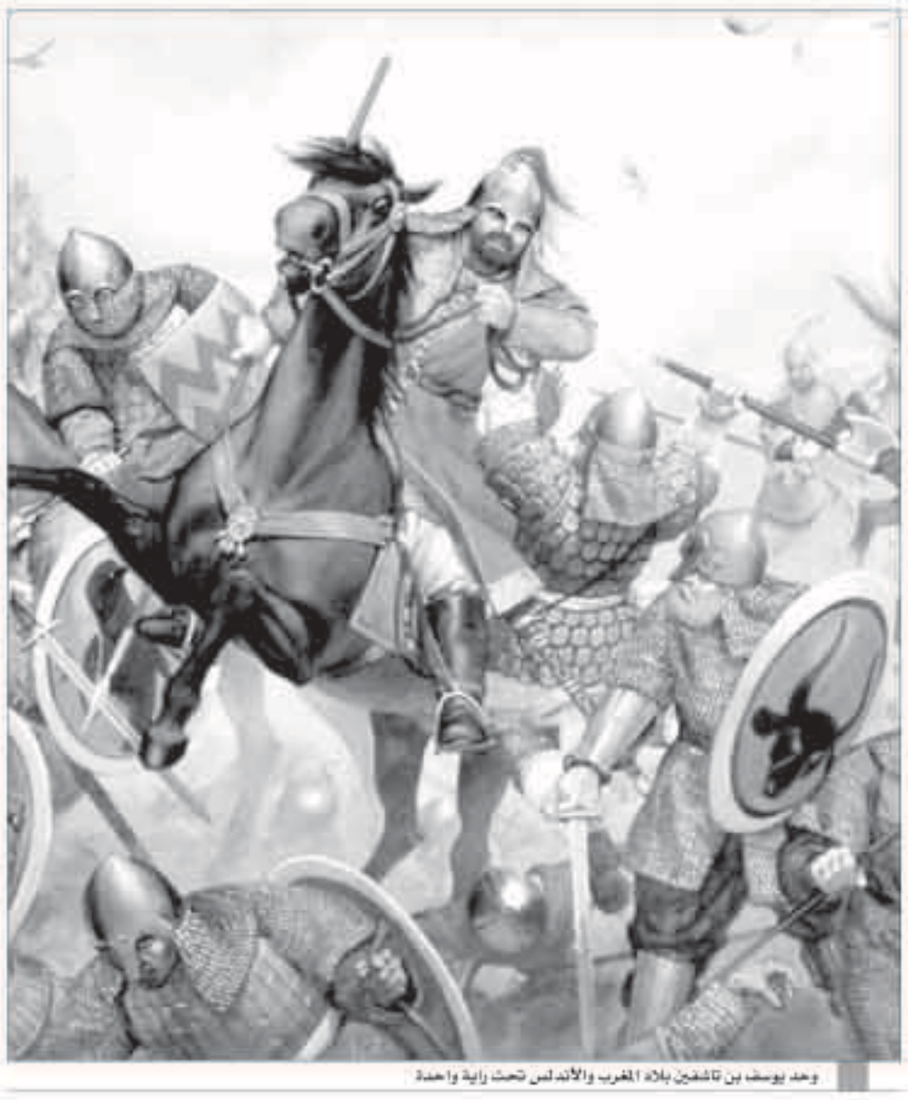
وحد يوسف بن تاشفين بلاد المغرب والأندلس تحت راية واحدة

وعلى الفور يذهب ابن رميلة -رحمه الله- في جنح الليل فيُوقظ قادة المسلمين حتى أيقظ المعتمد بن عباد، وقصّ عليهم رؤيا رسول الله ، ولا شك أن هذه الرؤيا قد هزّت ابن عباد فأرسل بخبرها إلى يوسف بن تاشفين وكل قوّاد الجيش، وقاموا من شدّة فرحهم وفي منتصف الليل وأيقظوا الجيش كله على صوت: رأى ابن رُمَيْلة رسول الله يقول له: «إنكم منصورون، وإنك ملاقينا».

مخابرات المعتمد بن عباد

كان المعتمد بن عباد يراقب -فيما يراقب- معسكر المرابطين أيضًا «خوفًا عليهم من مكائد ابن فرذلند؛ إذ هم غرباء لا علمَ لهم بالبلاد، وجعل يتولى ذلك بنفسه؛ حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين -المرابطين- كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه أو لقضاء حاجته فيجد ابن عباد بنفسه مطيقًا بالمحلة بعد ترتيب الكراديس -وهي كتائب الخيل- من خيل على أفواه طرق محلاتهم، فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يُخطئ ذلك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوافه عليهم».

ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة الفونسو وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحقت بقية الطلائع محققين بتحرك الفونسو، ثم جاءت الجواسيس من داخل معسكر الفونسو يقولون: «استرقنا السمع الساعة، فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد، غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، وإن انكشف لكم هان عليكم هؤلاء الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة». وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر ابن القصيرة إلى يوسف يُعَرّفه بإقبال الفونسو ويستحثّ نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي الأرض طيًا حتى جاء يوسف بن تاشفين فعَرّفه جلية الأمر.

الجيش الإسلامي وخطة الإعداد والهجوم

بعد ترتيب الجيش وصلاة فجر يوم الجمعة الموافق 12 من شهر رجب 479هـ=23 من أكتوبر 1086م، نقض الفونسو السادس عهده، وبدأ بالهجوم في ذلك اليوم؛ إذ الغدر والخيانة ومخالفة العهود هو الأصل عندهم.

ولقد صُدم الجيش الإسلامي، وفوجئ بالفعل -كما ستؤكد الرسالة التي كتبها يوسف بن تاشفين نفسه فيما بعد- وانحطّ عليه جيش النصارى بكتائب «تملأ الآفاق»، وبدت الصدمة الأولى صدمة هائلة حقًا!

كان الجيش الإسلامي قد انقسم إلى ثلاث فرق رئيسة:

الأولى: فرقة الأندلسيين

وتضم الجيش الأندلسي وعلى رأسه المعتمد بن عباد ومعه ملوك الأندلس؛ ابن صمادح صاحب المرية، وعبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس.. وغيرهم، وقد أمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد، كان المعتمد في القلب والمتوكل بن الأفطس في ميمنتها، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس الآخرين في مؤخرة هذه الفرقة، وقد اختار المعتمد أن يكون في المقدمة وأول من يصادم الجيش الصليبي.

يُريد بذلك أن يغسل عار السنين السابقة وما رآه من ذل وهوان، أو لعله كان يُريد أن يحوز القدر الأعلى من النصر إن تم؛ فيُنسب الأمر له، والله أعلم بالنوايا.

وقيل في روايات أخرى بأن يوسف بن تاشفين خشي ألا يثبت المعتمد بن عباد، وألا يبذل جهده في الحرب، فكان وضعه في المقدمة بطلب من يوسف بن تاشفين.

الثانية: فرقة من جيش المرابطين

وعلى رأسهم البطل المرابطي الكبير داود ابن عائشة، وكانت هذه الفرقة خلف الجيش الأندلسي.

الثالثة: جيش المرابطين الرئيسي بقيادة يوسف بن تاشفين يختفي خلف أحد التلال على مسافة من الجيش، بحيث لا يُرى هذا الجيش، فيُظَنُّ أن كل جيش المسلمين هو الفرقتان الأوليان: جيش الأندلسيين وجيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة.

وقد أراد يوسف بن تاشفين من وراء ذلك أن تحتدم الموقعة فتُنْهِك قوى الطرفين حتى لا يستطيعا القتال، وكما يحدث في سباق الماراثون فيقوم هو ويتدخّل بجيشه ليُعدل الكفة لصالح صف المسلمين.

لم تكن خطة يوسف بن تاشفين -رحمه الله- جديدة في حروب المسلمين؛ فقد كانت هي الخطة نفسها التي استعملها خالد بن الوليد في موقعة الولجة في فتوح فارس، وهي -أيضا- الخطة نفسها التي استعملها النعمان بن مقرن في موقعة نهاوند في فتوح فارس أيضا، فكان يوسف بن تاشفين -رحمه الله- رجلا يقرأ التاريخ ويعرف رجالاته ويعتبر بهم.

معركة الزلاقة هجوم الفونسو على المعتمد

لما كان يوم الجمعة الموافق 12 من شهر رجب 479هـ= 23 من أكتوبر 1086م هجم الفونسو السادس بجيشه الضخم على الجيش الأول للمسلمين (الجيش الأندلسي)، مال الفونسو السادس على المعتمد بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فاستحر القتل فيهم، وصبر ابن عباد -وجيشه الأندلسي- صبرًا لم يُعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعَضّته الحرب، واشتدّ البلاء، وأيقظا عليه الصحراويون، وساءت ظنون أصحابه، وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله، وأثخن ابن عباد جراحات وضرب على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه، وجرحت يُمنى يديه، وطعن في أحد جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قدّم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت بضرب يمينًا وشمالاً، وتذكّر في تلك الحال ابنًا له صغيرًا كان مغرمًا به، كان تركه بإشبيلية عليلاً اسمه المعلى وكنيته أبو هاشم، فقال: [المتقارب]

أبَا هَاشِمٍ هَشَّمَتْنِي الشِّفَارُ ××× فَلَلْه صَبْرِي لِذَاكَ الأُوَارْ
ذَكَرْتُ تَشَخِيصَكَ تَحتَ العَجَاجِ ××× فَلَمْ يَلْتَئِمْ ذِكْرُهُ لِلقَرَارْ

ثم ما هو إلا أن انضم إليه القسم الأول من جيش المرابطين وقائده داود ابن عائشة، وكان بطلاً شهمًا فنقس بمجيئه عن ابن عباد.

إلا أن الفونسو كان قد قسّم هو الآخر جيشه إلى قسمين، فانهال بالقسم الآخر على جيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة بأعداد ضخمة، «فاقتتلوا قتالاً عظيمًا، وصبر المرابطون صبرًا جميلاً، وداسهم اللعين بكثر جنوده حتى كاد يستأصلهم، وكانت بينهم مضاربة تفلّلت فيها السيوف، وتكسّرت الرماح، وسارت الفرقة الثانية من عسكر اللعين مع البرهانس وابن رذمير نحو ملحة (لعله يقصد محلة) ابن عباد، فداسوها، واستمرّت الهزيمة على رؤساء الأندلس إلى جهة بطليوس، ولم يثبت منهم غير ابن عباد وجيشه، فإنهم ثبتوا في ناحية يُقاتلون لم ينهزموا، وقاتلوا قتالا شديدًا، وصبروا صبر الكرام لحرب اللئام....». وبدا المعسكر الإسلامي مرة أخرى في حالة الهزيمة.

تحرك يوسف بن تاشفين

وهنا بدأ تحرك الجيش المرابطي الرئيسي الذي يقوده ابن تاشفين، وذلك بعد أن كانت قد أنهكت قوى الطرفين من المسلمين والنصارى، وبعد طول صبر ينزل يوسف بن تاشفين بالقسم الرئيسي من جيش المرابطين الذين كانوا معه، وهم في كامل قوتهم، فيحاصرون الجيش النصراني.

قسّم يوسف بن تاشفين الجيش الذي كان معه إلى قسمين: فالأول وقائده سير ابن أبي بكر -في قبائل المغرب وزناتة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر- يساعد جيش المسلمين الذي يقوده داود ابن عائشة والمعتمد بن عباد، والقسم الثاني بقيادته هو ومعه باقي قبائل صنهاجة والمرابطين يلتف خلف جيش النصاري، ويقصد مباشرة إلى معسكرهم، «فاضرمها نارًا وأحرقها، وقتل مَنْ كان بها من الأبطال والرجال والقرسان، الذين تركهم الفونسو بها يحرسونها ويحمونها، وفرّ الباقون منهزمين نحو الفونسو، فأقبلت عليهم خيله من محلته فارّين، وأمير المسلمين يوسف في الرهم بساقته وطبوله وبنوده، وجيوش المرابطين بين يديه يحكمون في الكفرة سيوفهم، ويروونها من دمائهم، فقال الفونسو السادس: ما هذا؟! فأخبر الخبر بحرق محلته ونهبها، وقتل حماتها، وسبي حريمها، فردّ وجهه إلى قتاله، وصمم أمير المسلمين نحوه، فانتشبت الحروب بينهما، فكانت بينهما حروب عظيمة لم يُسمع قط بمثلها...».

وحين علم النصارى أن المسلمين من ورائهم، وأنهم محاصَرون «ارتاعت قلوبهم، وتجللت أفئدتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم، وأخبيتهم، فسُقط في أيديهم، فنَوَوا أعنّتهم، ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان، واختلطت الملتان، واشتدت الكرّات، وعظمت الهجمات، والحروب تدور على اللعين، وتطحن رءوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال، والترجّل عن ظهور الخيل، ودخول المعترك، قامَ الله المسلمين بنصره، وقذف الرعب في قلوب المشركين».

اضطراب جيش النصارى معركة الزلاقة

وهكذا حوصر جيش النصارى بين الجيش الأندلسي من الأمام، وجيش المرابطين من الخلف، وبالفعل بدأ الاضطراب والتراجع في صفوف النصارى، وقد التفّ جنود النصارى حول الفونسو السادس يحمونه، ثم حدثت خلخلة عظيمة في جيشهم.

يقول الحميري: «فبادر إليه يوسف، وصدمهم بجمعه، فردّهم إلى مركزهم، وانتظم به شمل ابن عباد، ووجد ريح الظفر، وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعًا الحملة، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف، وحمل معه حملة نزل معها النصر، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين فصدقوا الحملة».

انتصار المسلمين

تزداد شراسة الموقعة حتى قُبيل المغرب، ثم ومن بعيد يُشير يوسف بن تاشفين إلى أربعة آلاف فارس من رجال السودان المهرة، وهم حرسه الخاص فيترجلون عن خيولهم ليقتحموا -فيما يشبه المهمة الخاصة- قلب جيش النصارى وينفذون إلى ملكهم، وبالفعل نفذ أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة، وأن يطعنه بخنجره في فخذه طعنة نافذة.

يصف صاحب الحلل الموشية هذه اللحظات من المعركة بقوله: «واشتدت الكرّات، وعظمت الهجمات، والحروب تدور على اللعين، وتطحن رءوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال، والترجّل عن ظهور الخيل، ودخول المعترك قامَ الله المسلمين بنصره... وفي أثناء ذلك، تلاقى بالطاغية أذفنش غلام أسود بيده خنجر يدعوه البرابر بالأفطس، قطع جرز درعه، وطعنه في فخذه مع مدار سرجه، فكان أذفنش يقول بعد ذلك: التحق بي غلام أسود فضربني في الفخذ بمنجل أراق دمي. فتخيل له الأفطس أنه منجل لكونه رآه معوجًا».

ويقول لسان الدين بن الخطيب: «ولم تزل الكرّات بين المحلات تتعاقب، والهجمات سجالاً تداول، والحرب تدور، وأمرُ الأميرُ يوسف العبيدَ فترجّلوا عن الخيل في نحو ألف، ودخلوا المعترك بالمزارق (الرماح القصيرة الخفيفة) لعجز السلاح عن الخيل الدارعة، فأثرت فيها بالطعن، وجعلت ترمح بفرسانها، ولصق منهم بالأذفونش عبد قبض على عنانه، وضربه بخنجر...». وبقي أثر الطعنة مع الفونسو بقية عمره، فكان يعرج منها.

ثم لجأ الفونسو إلى تل يحتمي به كان قريبًا من معسكره ومعه نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم، وأباد القتل والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم... ولما جاء الليل تسلل وهو لا يلوي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدًا بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة، وبعض الروايات تقول بأن الذين نجوا أقل من الثلاثين. وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك. واستشهد من المسلمين فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل.

وبذلك كانت الزلاقة دون مبالغة كمعركتي اليرموك والقادسية.

كان رأي المعتمد بن عباد أن يواصل الجيش مطاردته للفونسو المنحسب حتى يقضي عليه نهائيًا، ولكن ابن تاشفين كان يرى أن الضغط عليهم وإرهاقهم يجعلهم يستبسلون في القتال، فيقاتلون قتال مَنْ لا يرى حياته إلا بموت خصمه، وفي هذا ضرر على المسلمين، لاسيما وأن مطاردة الفونسو وهو على هذا الحال قد توقع في طريقه بعض المسلمين المنسحبين، الذين يتواصل عودتهم إلى الجيش مع انقلاب كفة المعركة، وهم بالنسبة له أقل قوة وهو القادر على الإيقاع بهم، فإن انتظروا هذا اليوم فتكامل عدد المسلمين برجوع الذين انسحبوا، هان عليهم أن يقاتلوه في اليوم الثاني، وردّ عليه ابن عباد بقوله: إن فرّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه، إلا أن يوسف أصرّ على الامتناع وقال: الكلب إذا أرهق لا بُدّ أن يعض.

ونحن إذ نقرأ التاريخ الآن نرى أن ابن عباد كان أصوب رأيًا من ابن تاشفين في هذا الأمر، فلقد استمر الفونسو يقاتل المسلمين بعدها عشرين سنة ولم يضعف ولم يتوانَ، ويُتوقع أن لو كان قُضي عليه في يوم الزلاقة لكنا نكتب الآن تاريخًا آخر، ولكان المسلمون استطاعوا أن يستعيدوا طليطلة مرة أخرى.. إلا أنه لا يسعنا أن نعترف بأننا نقول الرأي الآن بعدما انتهت الأحداث وانقشعت المعارك، وما ندري لو كنا في ذلك الموقف ماذا قد يكون الاختيار.

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس؛ مثل: ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة، وقاضي مَرّاكش أبي مروان عبد الملك المصمودي.. وغيرهما، رحمهم الله تعالى.

وما أن تنتهي أحداث الزلاقة حتى يصل إلى يوسف بن تاشفين نبأ مُفزع من بلاده بالمغرب، إنه يحمل مصيبة قد حلّت به وبداره، فابنه الأكبر قد مات، فيعجل هذا برجوع ابن تاشفين إلى المغرب.

زهد وورع يوسف بن تاشفين

بعد هذه المعركة جمع المسلمون من الغنائم الكثير، لكن يوسف بن تاشفين وفي صورة مشرقة ومشرّفة من صور الإخلاص والتجرّد، وفي درس عملي بليغ لأهل الأندلس عامّة، ولأمرائهم خاصّة يترك كل هذه الغنائم لأهل الأندلس، ويرجع في زُهد عجيب وورع صادق إلى بلاد المغرب، لسان حاله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: 9].

قال المقري في نفح الطيب: وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام؛ حتى جمعت الغنائم، واستوذن في ذلك السلطان يوسف، فعفّ عنها، وآثر بها ملوك الأندلس، وعرّفهم أن مقصده الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلمّا رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه، وأحبّوه وشكروا له ذلك.

عودته إلى المغرب

يعود يوسف بن تاشفين -رحمه الله- إلى بلاد المغرب بعد أن جمع ملوك الأندلس وأمّرهم بالاتفاق، وإطراح التنابذ والتخاصم؛ حتى لا يُضيعوا بخصاماتهم ثمار هذا النصر، وعاد يوسف بن تاشفين البطل الإسلامي المغوار وعمره آنذاك تسع وسبعون سنة!

كان من الممكن ليوسف بن تاشفين -رحمه الله- أن يُرسل قائدًا من قوّاده إلى أرض الأندلس، ويبقى هو في بلاد المغرب، بعيدًا عن تخطي الفقار وعبور البحار، وبعيدًا عن ويلات الحروب وإهلاك النفوس، وبعيدًا عن إرض غريبة وأناس أغراب؛ لكنه -رحمه الله- وهو الشيخ الكبير يتخطى تلك الصعاب، ويركب فرسه، ويحمل رُوحه بين يديه، لسان حاله: أذهبُ إلى أرض الجهاد لعلي أموت في سبيل الله.

شعاره هو: «الوافر»

إذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ
فَلَا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ المَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ
كَطَعْمِ المَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ

لكن يوسف بن تاشفين -رحمه الله- لم يمت هناك، فلا نامت أعين الجبناء.

المعتمد على الله بن عباد وشرف الجهاد

ولما دخل ابن عباد إشبيلية جلس للناس وهُنّئ بالفتح، وقرأت القرّاء، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه، يقول عبد الجليل بن وهبون: حضرتُ ذلك اليوم وأعددتُ قصيدة أنشده إياها، فقرأ القارئ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ [التوبة: 40]. فقلتُ: بُعْدًا لي ولشعري، والله! ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به، وطار ذكر ابن عباد بهذه الوقيعة وشهر مجده، ومالت إليه القلوب، وسالمته ملوك الطوائف، وخاطبوه جميعًا بالتهنئة، ولم يزل ملحوظًا معظمًا إلى أن كان من أمره مع يوسف ما كان.

وأصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك، يوم لم يُسمع بمثله من القادسية واليرموك، فيا له من فتح ما كان أعظمه! يوم كبير ما كان أكرمه! فيوم الزلاقة ثبتت قدم الدين بعد زلاقها، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها.

وفاته

وفي غرة محرم سنة 500هـ أي وهو في المائة من العمر، قرنًا كاملاً من الزمان، رحل البطل، وترجّل الفارس الشجاع، وموحّد الأمة بعد أن أتم أمير المرابطين عمله الذي عاش وجاهد من أجله، ووحد بلاد المغرب والأندلس تحت راية واحدة، وأعاد الإسلام الصحيح بربوع المغرب، وأزال الظلمة والطوائف والمتسلطين على رقاب العباد، وصدّ الصليبيين عن مسلمي الأندلس، وأوقف حرب الاسترداد الإسبانية فترة من الزمان.

ويكفي بشهادة ابن الأثير لذلك الرجل حين قال عنه: «وكان حسن السيرة خيرًا عادلاً، يميل إلى أهل الدين والعلم ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم».

قبر يوسف بن تاشفين في المغرب